الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

غزة ...

مدرسة الصمود

فلسفة الصبر في مواجهة الإبادة

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY

unicef

UNESCO
United Nations
Educational, Scientific and
Cultural Organization

GenEx
Generational Education Exchange

تمكين
TAMKEEN

UNIVERSITY OF VICTORIA
LONDON - UK

AMIEF
American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

في عالمٍ يتفاخر بإنجازاته التكنولوجية وقدرته على إيصال الطعام إلى أقاصي الكون، يموت طفلٌ في غزة كلّ عشر دقائق بسبب الجوع، وهذه ليست إحصائية باردة في تقرير دولي، بل صرخة طفولة تخترق جدران الصمت العالمي، وشاهدٌ على انهيار منظومة القيم الإنسانية التي نزعم الإيمان بها.

فقد أعلنت اليونيسف في تقرير مؤلم هزّ الضمير الإنساني، أنّ هناك طفلاً في غزة يموت كلّ 10 دقائق بسبب الجوع، عشر دقائق فقط، هو الوقت الذي نحتاجه لتحضير فنجان قهوة، أو قراءة رسالة نصية، أو النظر في المرآة صباحاً، عشر دقائق كافية لانطفاء شمعة طفولة لم تعد تجد ما يُبقيها مضيئة.

فالمجاعة في غزة ليست كارثة طبيعية تستوجب التعاطف والمساعدات الإنسانية، بل جريمة مُخطَّط لها بدم بارد، مُنفَّذة بدقة مُحكمة، ومُغلَّفة بخطابات سياسيّة تحاول تبرير ما لا يُبرَّر.

ولست ممن يُكثرون الحديث في الشأن السياسيّ، لكنّي اليوم أعجز عن الصمت أمام هكذا تصريحات وإعلانات، لأنّ الصمت أمام جريمة بهذا الحجم يجعلنا شركاء فيها، والسكوت عن الظلم ظلمٌ آخر نُضيفه إلى ظلم المُعتدين، فما يحدث في غزة ليس مجرّد أزمة إنسانيّة عابرة، بل اختبار حقيقيّ لضميرنا الجمعي، ومرآة تعكس مدى انحدار القيم التي نُعلّمها لأطفالنا، فإذا كان بإمكاننا أنْ نقف مكتوفي الأيدي أمام موت الأطفال جوعاً في القرن الحادي والعشرين ...

فأيّ مستقبل نبني لأجيالنا القادمة؟ وأيّ صمت نطيقه ونحن نشهد إنسانيّتنا تُذبح يومياً في غزّة؟ وأنّى لنا أنْ نغضّ الطّرف عن دماء الأطفال التي تصرخ بوجه العالم؟

إنّها ليست سياسة.. إنها بوصلة إنسانيّة ترفض أنْ تموت فينا...

لعلّي لا أملك حلاً لما يحدث، ولكنّني أملك قلباً ينبض بالحق، ولساناً يرفض أنْ يخون ضميره، ورغم اليقين بقوله تعالى:﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ (يوسف:21)، إلاّ أنّ هذه الحقيقة لا تعفينا من أنْ نكون صوتاً للحقّ حين تصمت أصوات الجميع وتصمت معها ضمائرهم.....

فلو توقّفنا عند قول اللّٰه تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾(الحجرات:9)، لوجدنا في هذه الآية إظهاراً لحكم اللّٰه في نزاع بين طائفتين مؤمنتين، فكيف يكون الحال عندما تكون إحداهما مؤمنة مظلومة كأهل غزة، والأخرى كافرة معتدية؟ أليس من باب أولى أنْ ننصر المظلوم المؤمن، ونقف مع المضطهد الموحّد، وندفع العدوان عن المستضعفين؟

فها هي آيات اللّٰه تتلى علينا، وتتلى من خلالها مسؤوليّاتنا، إذ يقول اللّٰه تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾(النساء:75)، فهي مسؤوليّة علينا أنْ نترجمها إلى مواقف عمليّة، وإلا فسنكون من الذين وصفهم اللّٰه تعالى بقوله:﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾(آل عمران:168)...ونحن للأسف صمتنا أمام دماء الأطفال، وتقاعسنا عن نصرتهم، وانشغلنا بملذّاتنا بينما هم يقتلون ويبادون..

فغزّة - لم تكن يوماً ولن تكون- مجرّد أرض ترزح تحت وطأة الظلم والاحتلال، بل كانت وما زالت مدرسة صمود علّمت العالم معنى العزة بالإيمان، وفلسفة الصبر في مواجهة الإبادة، ورغم أنّنا نحيا في زمنٍ تُقاس فيه القوةُ بالسلاح والاقتصاد، إلاّ أنّ غزة خرجت كالعنقاء من الرّماد لتُعلّم البشريّة أنّ العزّة ليست في القوّة الماديّة، بل في الإيمان الذي يحوّل الضعف إلى منعةٍ، واليأس إلى بصيص أمل...

فها هم أطفالُها قد حوّلوا الحجارةَ إلى دروسٍ في الكرامة، ونساؤها حولّن الخيامَ إلى قلاعٍ للصمود، وشيوخُها حوّلوا الجوعَ إلى صيامٍ اختياريٍّ عن الاستسلام...

ARAB-PSF.COM

فهنا.. تُختبر الإنسانيةُ في أقسى صورها، وتُولد فلسفةٌ جديدة للصّبر تُعيد تعريف "الانتصار".. وهنا الإيمان سلاح وجوديّ يجعل الرّوح لا تموت تحت القصف.. وهنا يتحوّل الحصار والجوع والقصف كلّ يومٍ إلى معركةٍ للبقاء، ويتحوّل "البقاء" إلى "مقاومة"، و"الحياة" إلى "جهاد"، فيقول أحد الناجين:"كنّا ننام على أصوات القنابل، ونستيقظ على آيات القرآن".

وهنا وجد أقوى بنك في الوجود، هو ليس بنكاً من ذهب أو أوراق مالية، بل هو "بنك الإيمان"؛ الذي لا تنفد خزائنه... وفيه أرصدة لا تنضب من شهادات الصبر التي يصدّرها الأطفال تحت القصف... وخزائن عامرة بودائع اليقين التي يودعها الشهداء بدمائهم... وفروع في كلّ خيمة نازح توزّع قروض الأمل دون فوائد.. وشهادة إيمان لكلّ شهيد.. وسجل إلهيّ مسجّل بكلّ دمعة أمّ انهمرت.. ودفتر توفير للجنّة لكلّ طفل جائع... وبطاقة ذهبيّة للبنك الربّانيّ ليقينهم بأنّ اللّٰه حسبهم وعليه يتوكّلون..فهنا في غزّة، يغدو اليأس عملة مزوّرة، وتتحوّل الأنقاض إلى منابر عزّة، ويصبح الجوع وجبة روحية للقرب من اللّٰه، فهذا هو بنك غزة الحقيقي.. بنك لا يخسر عملاؤه أبداً، لأنّ أرباحه مضمونة في الجنة...

وهنا في غزّة، حين تُغلق كلّ الأبواب، يبقى باب اللّٰه مفتوحاً..فالصلاة في ظلّ الدبابات، وحفظ القرآن بين الأنقاض، والدّعاء تحت الركام، والصّبر الذي تحوّل لمقاومة بالصّمت، كلّها ممارسات جعلت من الإيمان درعاً نفسياً ضدّ التّهجير واليأس..

وهنا في غزّة حين يحاصر الإنسان ويُجوّع، يصبح امتناعه عن البكاء انتصاراً، وحين يواجه الموت كلّ يوم تغدو التّضحية فعلاً مقدّساً، ويصبح تقديم الأبناء كشهداء نصراً وعزّاً لا هزيمةً، وتصبح فكرة الموت في سبيل الكرامة حياةً أخرى، فهم يستشهدون اليوم ليعيشوا غداً تحت ظلال الحريّة.

ARAB-PSF.COM

وهنا في غزة تظهر العزّة في أبسط التفاصيل، في دروس من الحياة اليومية، في رؤية أطفال يبيعون الحلوى على الحواجز العسكرية لإطعام أسرهم، وآخرون يرسمون علم فلسطين على جدارٍ مهدّم.. فهؤلاء هم من يعلّمون العالم أنّ "العزة" تُبنى بالكرامة، لا بالخبز وحده... وفي رؤية نساء وهنّ حصن المقاومة، نساء صنعن الخبز من القليل إنْ لم يكن من العدم، وعلمنَ أطفالهنّ أنّ الضحكة تحت القصف انتصارٌ، وحافظنَ على بيوتٍ من خيم كأنّها قصور... وفي رؤية هممٍ وفكر يبني بالعلم مدارسَ من شظايا الصواريخ، فرغم دمار مئات المدارس، فها هم طلبة غزة يواصلون الدراسة فوق الركام، مدركين بأنّ الثقافة سلاح، فشباب غزة ينتجون أفلاماً قصيرةً بالهواتف المحمولة، ويكتبون الشعر على جدران البيوت المدّمرة، مثبتين أنّ المقاومة بالفكر أقسى من المقاومة بالحجر...فرسالة غزة إلى العالم واضحة:

"نحن ضحاياكم.. لكننا لن نكون نسختكم".

وهنا تأتي غزة لتُذكّر الأمّة بأنّ الوحدة ليست شعاراً، بل هي دماءٌ تُسكب كلّ يوم، فغزّة لا تطلب النّجدة بل تطلب الضمير الإنسانيّ، وتكشف زيف ادّعاءات الحضارة التي زعمت أنّها تحترم الحياة، فما موت طفل جوعاً في القرن الـ21 إلاّ إدانة للعالم بأسره، فها هي غزة تعيش صرخة الجوع التي تعيد إحياء ذاكرة الخذلان التاريخيّ، فبين حصار المسلمين الأوّل ومجاعة القرن الحادي والعشرين نتساءل: أين الإنسانية؟

ففي عام 5 هـ، حُوصر المسلمون في شِعْبِ أبي طالب ثلاث سنوات، مُنعوا خلالها من الطعام والدواء حتى أكلوا ورق الشجر وجلود الحيوانات، واليوم، بعد 1440 عاماً، يتكرّر المشهد ذاته في غزة.. لكنْ.. هذه المرة تحت مرأى وأنظار العالم أجمع، العالم الذي يمتلك أقماراً صناعية ووسائل اتصال فورية، فها هم الأطفال يموتون جوعاً على شاشات الهواتف الذكية!

فهذه الصورة التوأمية بين حصار الشِّعب وحصار غزة مؤلمة، ففي حصار شِعْب أبي طالب منع الطعام والماء بواسطة قريش، واليوم تُمنع المساعدات بإغلاق المعابر، وفي وقت كان المسلمون يأكلون آنذاك ورق الشجر، فاليوم شعب غزّة العزّة يطحنون علف الحيوانات لصنع الخبز، وفي الوقت الذي استمرّ ذاك الحصار 3 سنوات، فحصار غزّة مستمرّ منذ 20 عاماً، ويتصاعد منذ 2023، وبينما انكسر حصار الشِّعب بإرادة اللّٰه، فالعالم اليوم يفرض بروتوكولات وإجراءات دبلوماسية بينما الأطفال يموتون...

فها هنا مجاعة القرن ال21 ، تَمثُل أمامنا جريمة ممنهجة بموافقة دوليّة وبأرقام تقشعرّ لها الأبدان:

- 651 يوماً من الحصار المطبّق منذ أكتوبر 2023، وهذا يعني؛ حصار شامل، ومعابر مغلقة أمام الغذاء والدواء والوقود، ممّا أدّى إلى شحّ حادّ في المواد الأساسيّة، وتدمير للبنية التحتيّة بما فيها المخابز، المطاحن، والأراضي الزراعية، ممّا أفقد القطاع قدرته على إنتاج الغذاء ذاتياً.
- نصف مليون شخص (واحد من كلّ خمسة) يواجهون الجوع الكارثي أي ما يعادل 70% من السّكان، مع تصنيف السكان بأكملهم في مرحلة انعدام الأمن الغذائي الحاد المرحلة الخامسة.
- أكثر من 900 شهيد، من بينهم 71 طفلاً ماتوا بسبب سوء التغذية منذ مارس 2025، وفقاً لمنظمة الصحة العالمية.
- أكثر من 16,736 طفلاً أُدخلوا للعلاج من سوء التغذية في الأشهر الخمسة الأولى من 2025 ، بمعدل 112 طفلاً يومياً.
- 17 ألف طفل و أم يحتاجون علاجاً عاجلاً من سوء التغذية الحاد.
- ارتفاع أسعار الطعام الأساسيّ بنسب وصلت إلى 527% ، إذ يكلّف كيس دقيق واحد (25 كيلو) ما بين 235-520 دولاراً.
- انتهاكات صارخة للقانون الدوليّ باستخدام التجويع كسلاح حرب، وهو ما يعدّ جريمة بموجب المادة 8 من نظام روما الأساسي .

فها هو الخذلان الدولي يشهد بأنّ غزة تُباد بأدّق التفاصيل على وسائل التواصل الاجتماعي، ولم يتحرّك قيد أنملة...وها هو الضمير العالمي يفشل في نصرة غزّة ويلتزم الصّمت والسّكون...

فلماذا حينما نتحدّث عن مجاعة في أفريقيا، تُرسل الطائرات.. وعندما تُصنع المجاعة في غزة، تُرسل البيانات الدبلوماسيّة؟

ولماذا لو كان أطفال غزّة أطفال أوروبا لكانت القوارب الحربيّة قد وصلت منذ أشهر؟

ولماذا ترتبط المساعدات بـ"إطلاق الرهائن"؟ وي ْكأنّ الأطفال الجوعى طرف في المفاوضات؟

ولماذا تعلو السياسة فوق الإنسانية؟

هي تساؤلات لربّما لن تجد إجابات شافية للضمائر، ولكنّها ستبقى تطرح ذاتها مع كلّ قطرة دم، ودمعة حزن، وصرخة ألم، وروح ترتقي.. وتتوّج هذه التّساؤلات بسؤال يحرق الضمير حرقاً:

ماذا لو وقفنا جميعاً بين يدي اللّٰه تعالى، وسألنا عن موقفنا حين رأينا أطفال غزة يموتون جوعاً أمام أعيننا؟ماذا سيكون جوابنا؟

هل سنقول: شاهدنا القتل البطيء على شاشات هواتفنا ثم مررّنا إلى منشورات الترفيه؟

م سنعترف:علمنا بالأمر لكنّنا اعتبرناه شأناً سياسيّاً لا يعنينا؟

أم سنحني الرؤوس والهامات خجلاً حين نكتشف أننا كنّا مجرّد متفرّجين على أبشع مجاعة مُصنّعة في العصر الحديث؟

هذه ليست مجرّد أسئلة افتراضية، بل محاسبة للضمير قبل محاسبة من الرب، ففي الوقت الذي نتنعّم فيه بوجباتنا الدافئة، هناك أمهات في غزّة يشهدن موت أطفالهن الرضع من شدة الجوع، ففي عصرنا الحالي تكتسب الآية﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾(التكوير:8-9) معنى مؤلماً جديداً في ظلّ معاناة غزّة، فها نحن اليوم قد أصبح صمتنا اليوم شريكاً في الجريمة، فكلّ لحظة تمرّ دون فعل حقيقيّ هي إقرار ضمنيّ بأنّ حياة الطفل الفلسطينيّ أرخص من مصالحنا السياسية وعلاقاتنا الدبلوماسية.

ورغم أنّ الموت ينتشر في غزّة كالهواء ويغلّفها برائحة الشهداء..إلاّ أنّ شعب غزّة لن يموت..

رغم كلّ الموت والابتلاء.. نعم هو لن يموت، وغزّة لم تهزم...نعم غزّة لم تهزم رغم كلّ الانكسارات.. فهم في عمق يقين وإيمان بقول اللّٰه تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾(إبراهيم: 42)، نعم غزّة في صبر، لا لانتظار حدوث معجزة، بل صبر لصناعة المعجزة بأيديهم، ففي اليوم الذي ستتحرّر فيه كلّ فلسطين، سيتذكّر التاريخ أنّ غزة كانت "المدرسة" التي تخرّج منها أبطالٌ علّموا العالم أنّ الإيمان يُحرّك الجبال.. حتى ولو كانت جبالاً من صواريخ.

ويبقى السؤال: هل يجب أنْ يباد الشعب بأكمله لتستيقظ الضمائر؟ هل وجب أنْ يناله التنكيل أكثر حتّى تذرف الدموع؟

ومهما كان الجواب، فغزة لم تكن يوماً مجرّد أرضاً تحتلّ، بل فكرةٌ تُحرّر العقول قبل تحرير الأرض، وها هي رغم الأسى والآه تكتب تاريخاً جديداً للبشرية، لا بالاسلاح.. بل بالإرادة.

ولم يبقَ شيء يقال، سوى أنْ أذكّركم يا أمّة المليار مسلم بأنّ التاريخ ينُذرنا بصوتٍ عالٍ:

إنْ خُدّرت ضمائرنا أمام غزة اليومَ، فستُخلق غزةٌ أخرى غداً في أرضٍ أخرى.

وعندما يحينُ يومُ المحاسبة، لن ينفعنا حينها ندمُ البُكاء على الأطلال، ولن تُجدي كلماتُ الندم:

ليتنا تحرّكنا حين كان الثور الأبيضُ حيّاً !

وآخر دعوانا .....

اللهمّ إنّا نشكو إليك ضعف قوّتنا، وقلّة حيلتنا، وهواننا على الناس، اللهم أنت ربّ المستضعفين وأنت ربّنا، لا إله إلا أنت، إلى من تكلنا؟ إلى قريب يتجهّمنا، أم إلى عدو ملّكته أمرنا؟

إنْ لم يكن بك سخط علينا فلا نبالي، غير أنّ عافيتك هي أوسع لنا...

نعوذ اللهمّ بنور وجهك الكريم، الذي أضاءت له السموات والأرض، وأشرقت له الظلمات، وصلُح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أنْ يحلّ علينا غضبك، أو ينزل علينا سخطك، لك العتبى اللهم حتّى ترضى، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك.

اللهمّ يا حيّ يا قيّوم يا منزل الرحمة والنصر، يا مجيب المضطر إذا دعاك...

اللهمّ انصر إخواننا في غزة نصراً عزيزاً مؤزراً..

اللهمّ احفظهم بحفظك واجعلهم تحت جناحك...

اللهمّ أطعم جائعهم.. واشفِ مريضهم.. وارحم ميتهم...

اللهمّ فرّج كربهم واكشف غمّهم واجبر خواطرهم...

اللهمّ آمين.